الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية

الدكتور محمد طه الحاجري

— ٢ —

قبل أن ننتقل إلى تبين صور هذا الدور من أدوار الوراقة ، وتبين معالم هذه المرحلة من مراحلها ، نحاول أن نؤدي صورة عن المرحلة التي سبقت انفراد الكاغد بالورّاقة ، إذ كان يشاركه الرق والقرطاس في أداء حاجات الحضارة . وقد استمرت هذه المرحلة وقتاً غير قصير اشتدت فيها المنافسة بينه وبينهما ، وظل فيها للرقوق مكانها الظاهر في عالم الكتابة ، وفي بيئات العلماء والمؤلفين ، كما كان للقراطيس كذلك شأنها لدى الوراقين وأصحاب الدواوين.

فأما المهارق فيبدو أنها خرجت من الميدان قبل أن تنشب هذه المنافسة ، لم تشارك فيها ولم تشهدها . وقد ظهر أنه لم يعد لها مكان بعد في هذه الناحية من نواحي الحضارة الاسلامية الجديدة . وخاصة بعد أن انتقلت إلى البلاد الاسلامية صناعة الكاغد . ومن قبل ما كان استعمال المهارق محدوداً في حدوده الضيقة ، مقصوراً على بعض الموضوعات الخاصة ، كما سبق القول .

وإذا كانت كلمة المهرق قد بقيت في بعض الصور الشعرية ، كما في هذا البيت من شعر أبي تمام :

مسودّ شطر مثل ما اسود الدجى مبيضّ شطر كابيضاض المهرق[1]

فليس في هـذا ومثله ما يدل على أن المهارق ظلت مستعملة في القرن الثالث ، في أيام أبي تمام ، إذ كان مبلغ ما يدل عليه أن صورة المهرق كانت صورة معروفة في الذهن ، حتى جاز لأبي تمام ان يستخدمها في صنع هذه الصورة الشعرية . ونحن لم ننكر أنها كانت معروفة على وجـه ما . والتشبيه بها وبأمثالها مما لا تزال له صورة ذهنية أو أدبية معروف جائز لم يمنعه أحد ، وما يزال متردداً شائعاً في الصناعة الشعرية والـكتابة الفنية .

على أن كلمة المهرق لم تلبث أن فقدت مدلولها الخاص الذي رأيناه في الفصل السابق ، وأصبحت تطلق على الورق عامة ، كما صارت اليه كلمة القرطاس وكلمة الـكاغد . ومن ذلك جاز للقلقشنـدي أن يقول حين ذكر المهرق انه القرطاس الذي يـكتب فيه . كما نرى الـكلمة ماثلة في الشعر المعاصر ، في مثل قول شوقي في قصيدة النيل :

وعليك تجلى من مصونات النهى خود عرائس خدرهن المهرق[2]

وإذا كان المهرق ، بذلك المدلول الخاص ، قد اختفى من عالم الوراقة ، فقد كان هنالك ما هو قريب منه وشبيه به ، وان لم يطلق عليه اسم المهرق ، بعد أن أصبح اسماً من أسماء الورق عامة ، مثل « الـكرباسة » التي يذكرها المقدسي في مقدمة كتابه « أحسن التقاسيم » ، في سياق كلامه عن الأشكال الجغرافية التي مثلها في كتابه ، وانه رجع فيها إلى عدة من الصور ، فيذكر أن من هذه الصور صورة « على كرباسة عند أبي القاسم ابن الانماطي بنيسابور »[3] . والـكرباسة كلمة فارسية تعني ثوبا من القطن أبيض ، كما يقول صاحب القاموس . فهي بهذا الوصف قريبة من المهرق ، إلا أنها من قطن وهو من الحرير

---

(١) ديوان أبي تمام ، ص ١٥٩ ، ط القاهرة ، ١٩٤٢ .

(٢) الشوقيات ٢ : ٨٧ مطبعة مصر ، ١٩٣٩ .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص ٦ .

واكبر الظن أنها كانت تعالج بشيء من الصمغ أو ما اليه لإعدادها لرسم المصورات أو ما نسميه بالخرائط الجغرافية . وربما كانت مخصوصة اذ ذاك بهذا الغرض ، كما كانت المهارق مخصوصة من قبل بالوثائق والعهود وكتب الدين .

ومن هذا القبيل أيضاً ما ذكره صاحب الحوادث الجامعة ، في حوادث سنة ٦٣٢ ، في سياق كلامه عن تزويج ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من مجاهد الدين ايبك الخاص المستنصري المعروف بالدويدار الصغير ، وذلك إذ يقول :

« وكتب كتاب الصداق في ثوب أطلس أبيض » (١) .

ولكن مثل هذه الصور ، وان قاربت المهرق ، واتفقت معه في بعض المعنى ، فانها بعيدة فيما نرى عن عالم الوراقة ، فلا يعد وجودها استمراراً للمهرق ، ومنافياً لما ذكرنا قبل ، في أول هذا الفصل ، انه لم يلبث أن خرج من هذا العالم ، مخلياً الميدان للرق والقرطاس والكاغد .

اما الرق فشأنه مختلف كل الاختلاف ، فقد ظل أمداً غير قصير في الاسلام ، منذ كتب عليه المسلمون الأول المصحف ، وهو صاحب المكان الأول . وبالرغم مما تعرض له من منافسة القرطاس أولا ثم الكاغد بعد ، فقد ظل يكافح كفاحاً قوياً دائباً لم يهن فيه ولم يضعف ، إلى ان قضت نواميس الوجود قضاءها فيه ، فكان ما لا بد منه ، واختفى امام الكاغد ، بعد أن سجل في تاريخ الوراقة فصلا حافلا .

كان المسلمون منذ أول أمرهم قد جعلوا اكبر معولهم في الكتابة عليه ، كما ظل ايثارهم له على القرطاس ، وخاصة في تدوين العلم ، دون أن يصرفهم عنه أو يهون من شأنه عندهم أن فتحوا مصر ، وملكوا زمام الأمور فيها ، فلم يعد يعترض سبيل القراطيس اليهم شيء . فقد ظلت تحمل بالقياس اليهم طابع الترف ، كما قلنا ، وكانوا ما يزالون موسومين بطابع

(١) الحوادث الجامعة ، ص ٢٢ .

البداوة . كما اتخذ الرق بتاريخه في كتابة المصحف وتدوين الحديث طابعاً دينياً رجح كفته ومكن من ايثاره .

وإلى جانب ذلك كانت القراطيس ـ فيما يبدو ـ عزيزة بعض الشيء غالية الثمن ، وبذلك كان استعمالهم لها في أضيق حدود حاجتهم اليها ، واكثر ذلك إنما كان في بعض الشؤون الادارية والديوانية التي لم تعد الرقوق تلائمها . وبذلك كانت القراطيس مقصورة في العهد الأموي على المترفين من الخلفاء ، وعلى بعض شؤون الديوان . أما الخلفاء فكان استعمالهم اياها مظهراً من مظاهر الامتياز والاستعلاء . ومن ذلك ما يقول الجهشياري : « وكان الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير ، وأمر بأن تعظم كتبه ، ويجلل الخط الذي يكاتب به ، وكان يقول : تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض » [1] .

وليس يتعارض هذا الذي يورده الجهشياري مع ما نقلناه قبل عن محمد بن عمر المدائني أن الخلفاء منذ عهد معاوية لم تزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها . فكلام الجهشياري عن الطوامير خاصة ، وكلام المدائني عن القراطيس . والطوامير هي القراطيس في صورتها الكاملة وفي قطعها الكبير [2] ، وهي التي كان الوليد أول من أمر أن تكون كتبه فيها . أما قبل ذلك فقد كانت القراطيس التي تحمل كتب الخلفاء في صورة منقوصة أو في هيئة جزازات ، وكان ذلك كافياً في بيان الامتياز ، أول العهد بالنظام الملكي ، في أيام معاوية ومن جاء بعده ، أما حين أخذ ذلك النظام يستكمل مميزاته ويستوفي مظاهره وحين أخذت جرازات القراطيس تفقد اختصاصها بالخلفاء ، فقد كان على قصر الخلافة أن

---

(١) الوزراء والكتاب ، ص ٤٧ .

(٢) يقول القلقشندي ، وان كان كلامه لا يؤدي صورة الطومار القرطاسي : « المراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله ، وهو المعبر عنه في زماننا بالفرخة » صبح الاعشى ٣ : ٤٩ .

يستحدث في ذلك نظاماً جديداً ، يحقق ذلك الامتياز في صورة واضحة قوية ، فكان ذلك الأمر الملكي الذي اصدره الوليد : أن تكون كتب الخلافة في الطوامير ، وان يتخذ خطها صورة مختلفة .

وقد كان هذا المظهر الذي يصدر عن روح الاستعلاء من المظاهر التي انكرها عمر ابن عبدالعزيز وغيرها ، فكان ـ كما يقول الجهشياري ـ « يأمر كتابه بجمع الخط ، كراهية استعمال الطوامير ، فكانت كتبه انما هي شبر أو نحوه »[1] . وعمر بن عبد العزيز كان ـ كما نعلم ـ يمقت كل ما يدل على الاستعلاء والكبرياء ، كما كان يمقت كل مايدعو الى الاسراف في مال الدولة ، والحمل على بيت مال المسلمين . وهو في إنكاره الكتابة في الطوامير ، وأمره كتابه بالعدول عن تجليل الخط ، يصدر عن كراهية الاستعلاء والاسراف جميعاً .

وكما كان هذا موقفه من الكتب الخلافية ، كذلك كان موقفه من الكتب الديوانية التي تصدر عن عماله في الاقاليم . وكان هؤلاء العمال ـ فيما يظهر ـ يسرفون في استعمال القراطيس التي تبعث بها الدولة اليهم لاستخدامها في شؤون دواوينهم . فحين ولي الخلافة وجد كتاباً كان والي المدينة ، أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم ، قد وجه به إلى سلفه سليمان بن عبد الملك ، يسأله فيه أن يبعث اليه بقدر من القراطيس ، لحاجة الديوان اليها ، فأثار هذا الكتاب في نفسه نزعة الحرص على مال الدولة وكراهيته للاسراف في غير طائل ، فكتب اليه ، جواباً على كتابه هذا : « أما بعد ، فقد قرأت كتابك إلى سليمان تذكر انه قد يجري على من كان قبلك من أمراء المدينة من القراطيس لحوائج المسلمين كذا وكذا فابتليت بجوابك فيه ، فاذا جاءك كتابي هذا فأرق القلم ، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة . فانه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم .

---

(١) الوزراء والكتاب ، ص ٥٢ .

والسلام عليك » [1] .

ذلك كان شأن القراطيس في أيام الدولة الأموية : مظهر ترف واستعلاء يكاد يكون مقصوراً على الخلفاء ومن اليهم ، وأداة من أدوات الادارة والتنظيم ، أما فيما عدا ذلك فكان الشأن ما يزال للرقوق .

قال ابن خلدون في الفصل الذي عقده للكلام « في صناعة الوراقة » : « وكانت السجلات أولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد ، لقلة الرفه وقلة التآليف ، صدر الملة ، كما نذكره ، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك . فاقتصروا على الكتاب في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلا بها إلى الصحة والاتقان . ثم طما بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك ، فاشار الفضل بن يحيي بصناعة الكاغد ، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ، وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت » [2] .

فابن خلدون يرى ، اذن ، أن الرق استأثر بوجوه النشاط المختلفة ، ديوانية وعلمية ، حتى نشأت صناعة الكاغد ، وكأنه إنما يتحدث عن الرق في المغرب ، كما سنرى بعد ، فهو لا يذكر القرطاس ومبلغ مشاركته في الحياة الديوانية ، على النحو الذي رأينا ، إما غفلة منه عن هذا الجانب من جوانب الوراقة ، أو ميلا إلى التعميم والاجمال ، والاقتصار على الصورة البارزة في هذه المرحلة الأولى من تاريخ الوراقة ، وكان الرق هو الذي يمثلها أما القرطاس فكان بالقياس اليه ضعيف الشأن هين الأثر ، بحيث استجاز أن يتجاوزه ، وان كان له مكانه الذي لا يستطيع المؤرخ أن يتجاهله .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، ص ٦٤ ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، ١٩٢٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٧٠ — ٤٧١ .

وا كبر الظن أن ابن خلدون كان متأثراً في هـذا العرض السريع لتاريخ الوراقة في المرحلة الأولى بما كان عليه أمرها في المغرب .

أما كتاب المشارقة فقد عرفوا للقراطيس مكانها في هذه المرحلة على النحو الذي رأينا طرفا منه ، وكما نرى عند البلاذري ، إذ يقول حكاية عن أبي الحسن المدائني : « وأخبرني مشايخ من الكتاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس من البردي ، وكذلك الكتب إلى ملوك بني أمية في حمل المال وغير ذلك » [1] .

وبعد ، فقد كان قيام الدولة الأموية فى الشام مما أتاح للقرطاس أن يسلك إلى الديوان طريقه ، وأن يأخذ فيه مكانه ، إذ كانت الشام قديمة العهد به ، لصلتها بالدولة البيزنطية ، ووقوعها على الطريق التجاري الذي يحمل القراطيس من مصر إلى بلاد الروم . وبنمو الحياة الديوانية في عهد الدولة الأموية واتساعها وتعدد وجوهها عظم شأن القراطيس في هـذه الحياة ، واشتدت منذ ذلك الوقت صلتها بالحضارة الاســلامية . فاذا انتهى عهد الدولة الأموية ، وانتقلت الخلافة من الشام إلى العراق ، فقد كان لهذا الانتقال أثره في كثير من وجوه الحياة ، وكان من الطبيعي أن يكون له أثره في بعض النظم الديوانية . وكان ان نشأت الرغبة أن يخلى القرطاس مكانه للرق ، وهو ـ كما رأينا قبل ـ فارسي الصناعة ، لولا أن الأمر جرى في دواوين العراق على استعمال القرطاس . وذلك ـ فيما نحسب ـ هو تأويل الاضطراب الذي يلاحظه الباحث بين التحول إلى الرق والابقاء على القرطاس في أوائل الحكم العباسي ، فهاهو ذا خالد بن برمك لا يكاد يلي الوزارة لابي العباس السفاح حتى يستبدل الرق بالقرطاس [2] ، فاذا جاء أبو جعفر أخذ ينظر في الأمر من وجوهه المختلفة ويخضعه لهذا الاعتبار وذاك ، فهو متردد بين التحول إلى الرق ، وهو ميسور في العراق ،

(١) فتوح البلدان ص ٤٧٠ ط مصر ١٩٠١ .

(٢) الوزراء والكتاب ، ص ٩٠ .

قريب إلى الذوق العام ، وبين الابقاء على القرطاس ، وهو كثير في الديوان ، جار مع عادة اصحابه ، وليس الحفاظ على مثل هذه العادة بالشيء القليل . فهاهوذا ، مرة ، يأمر وزيره أبا أيوب المورياني أن تكتب الرسائل بجمل المـــال في صحف ، كما يحكي البلاذري [1] . وهاهوذا ، مرة أخرى ، يهم ببيع القراطيس التي في خزائنه ، ولـكنه لا يلبث حتى يعدل عن ذلك ، كما نرى في هذا الخبر الذي يحكيه الجهشياري :

« وقف أبو جعفر على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصالح صاحب المصلى ، فقال له : اني امرت باخراج حاصل القراطيس في خزائننا ، فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتولّ بيعه ، وان لم تعط بكل دينار إلا دانقاً . فان تحصيل ثمنه أصلح منه . قال صالح : وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم . فانصرفت من حضرته على هـذا . فلما كان الغد دعاني ، فدخلت عليه ، فقال لي : فكرت في كتبنا ، وانها قد جرت في القراطيس وليس يؤمن حادث بمصر ، فتنقطع القراطيس عنا بسببه ، فنحتـاج إلى أن نكتب فيما لم نعوده عمالنا ، فدع القراطيس استظهاراً على حالها » [2] .

على أن هذا الخبر ـ إلى جانب دلالته على انتهاء فترة الاضطراب والتردد بين القرطاس والرق ـ قاطع الدلالة على ان القراطيس كانت قد أصبحت أداة من أدوات الديوان الضرورية ، لا يملك الاستغناء عنها والاستبدال بها ، حتى آثر المنصور ـ على شدة رغبته في المال وحرصه على توفيره لبناء الدولة وحمايتها ـ الابقاء عليها ، حتى لا يضطر العمال إلى أن يكتبوا فيما لم يتعودوا الـكتابة فيه ، إذا حدث حادث منع ورود القراطيس من مصر .

وحين يصـور أبو نواس فتى من فتيان الديوان يصوره وقد نشر الطومار بين يديه في مثل قوله :

---

(١) فتوح البلدان ٤٧٠ ، ط مصر ، ١٩٠١ .

(٢) الوزراء والـكتاب ، ص ١٣٨ .

ان الذي تيّمني حبه أمرد من نشء الدواوين
قد نشر الطومار في حجره مبتدئاً بالباء والسين [1]

كما يذكر ابن النديم رجلا محررا يصفه بأنه من صنائع البرامكة ، يعرف بالأحول المحرر ، وانه عارف بمعاني الخط واشكاله ، وانه تكلم على رسومه وقوانينه ، وجعله أنواعاً . ثم يقول : « وكان هذا الرجل يحرر الكتب النافذة من السلطان إلى ملوك الأطراف في الطوامير » [2] .

على أن القراطيس كانت ـ فيما يبدو ـ قد تجاوزت الديوان ، وخرجت إلى الحياة العامة ، فلم تعد مقصورة على كتب الخلفاء أو الأعمال الديوانية للدولة أو دواوين الأمراء والسراة ، بل أصبحت إلى جانب ذلك مادة يحتاج الناس اليها في رسائلهم ومخاطباتهم ، وفيما يريدون تدوينه من أسباب حياتهم . ولعل الخبر الذي أوردناه عن الجهشياري يشير إلى شيء من هذا . فعرض المنصور القراطيس لبيعها يشير إلى أنها كانت تستعمل أيضاً خارج الديوان .

ومن ذلك ما نراه في قول أبي نواس ، وقد أعرب عن حاجته إلى قطعة قرطاس ، وليس هو من أهل الديوان :

أريد قطعة قرطاس فتعجزني وجلّ صحبي من أهل الدواوين
لحاهم الله من ود ومعرفة ان المياسير منهم كالمفاليس [3]

وفي شعر أبي نواس أيضاً نستطيع أن نرى بعض الوجوه التي كانت تستعمل فيها

---

(١) ديوان ابي نواس ، ص ٣٥٣ ، مطبعة مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٠٣ .

(٢) الفهرست ، ص ١٢ — ١٣ ، ط الرحمانية ، القاهرة . وكلة المحرر كانت تعني جود الخط وضابطه أو ما يطلق عليه الآن اسم « الخطاط » .

(٣) ديوان أبي نواس ، ص ٦٠٤ .

القراطيس خارج الديوان ، إذ نرى أنها كانت من أدوات الصبيان التي يستعملونها في حياتهم المدرسية ، أو في حاجاتهم الكتابية ، إلى جانب الالواح ، وذلك إذ يضيف القرطاس اليهم ، فيقول : « قرطاس الوليد » ، في هذا البيت من شعره :

واحتازها لون جرى في جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان [1]

وهكذا نرى في هذه النصوص والشواهد أن ليس الأمر كما تصوره عبارة ابن خلدون التي أوردنا نصها ، من انفراد الرقوق بالأمر كله إلى أن نشأت في العراق صناعة الكاغد ، في أيام البرامكة كما يزعم ، فقد كان للقرطاس هـذا المكان الظاهر إلى جانب الرق ، كما أخذت دائرة استعماله تتسع شيئاً فشيئاً ، تبعاً لاتساع الحضارة وتعقدها وتعدد مظاهرها ، فلم يعد ـ كما رأينا ـ مقصوراً على الأعمال الديوانية ، كما كان شأنه قبل . بل مضى في وجوه الحياة المختلفة يشارك فيها ، وقوى الشعور العام بالحاجة اليه ، حتى بدا كأن مصر لم تعد تكفي هذه الحاجة ، وان الضرورة تدعو إلى أن تكون صناعة القراطيس صناعة عراقية فتنشأ لها المصانع في العراق ، ويحمل اليها الصناع من مصر يتولونها ويضعون أسس العمل فيها . وقد حاول المعتصم هذه المحاولة ، وان لم تنجح ، كما يذكر ذلك ابن الفقيه ، إذ يقول : « وقد حمل المعتصم بالله صناع القراطيس إلى سر من رأى ، مع تربتها ومائها ، وأمرهم باتخاذه هناك فلم يخرج منه إلا الخشن الذي يتكسر » [2] .

ومن ذلك نرى أن القراطيس احتفظت بمكانها من الوراقة في القرن الثالث . والجاحظ يذكرها بين ما تستورده مصر من العراق ، إذ يقول : « و [يجلب] من مصر الحمر الهماليج ، والثياب الرقاق ، والقراطيس » [3] ، كما يذكرها في قصه أبي سعيد المدائني في

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ ، وانظر : أدب الكتاب للصولي ص ١٠٦ ، المطبعة السلفية .

(٢) البلدان ، ص ٢٥٢ ، ط ليدن .

(٣) التبصر بالتجارة ، ص ٢٧ ، ط الرحمانية ، القاهرة ١٩٥٠ .

كتابه البخلاء [1] ، في سياق يدل على شيوعها . وكذلك يذكرها أبو تمام في شعره ، إذ يمدح محمد بن عبد الملك الزيات ، ويمضي ، في سياق مديحه ، يصف القلم ويصوره ، فكان مما قال في صفته .

اذا استغزر الذهن الجلى وأقبلت اعاليه في القرطاس وهي أسافل [2]

كما تذكر في خبر ـ نعرض له بعد ـ لأحمد بن بديل الكوفي مع الخليفة المعتز .

وهذا كله في المشرق حيث تتخذ منافسة الكاغد للقرطاس أعنف صورها بطبيعة الحال، وقد أخذ يكابد هذه المنافسة دون أن تمكنه ظروف صناعته أن يصمد طويلا لها . ولعل الرغبة في انشاء صناعة القرطاس في العراق ، كما ذكرنا ، تدل على الحالة التي كان يعانيها ، والتي أريد استنقاذه منها دون جدوى . ومع ذلك فقد ظل يقاوم مقاومة المستيئس ما امكنته المقاومة .

أما في مصر فقد ظلت صناعة القرطاس إلى أواخر هذا القرن ، على الأقل ، ماضية في طريقها ، وظلت مصانعها تعمل وتنتج ، وان كنا لا نعلم مدى هذا الانتاج . وقد ذكر اليعقوبي ـ وهو من أهل القرن الثالث في شطره الثاني ـ من هذه المصانع مصنعين كلاهما في شمال دلتا النيل ، حيث يكثر نبات البردي ، احدهما في (بورة) ، وهي ـ كما يقول ـ حصن على ساحل البحر من عمل دمياط ، والآخر في مدينة (اخنو) ، وهي في الجانب الغربي من شمال الدلتا ، عند رشيد . وقد ذكر عنها انه « يقال لها وسيمة » [3] . ولا ندري أكان هذان المصنعان هما كل مصانع القراطيس في مصر في ذلك الوقت ، أم كان هنالك

---

(١) ص ١٤٣ ، ط دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) ديوان ابي تمام ، ص ١٩٤ ، ط القاهرة وانظر : الحيوان للجاحظ ١ : ٦٧ ، أدب الكتاب ، ص ٧٧ .

(٣) كتاب البلدان ، ص ٩٠ ، ط النجف ، العراق ، ١٩١٨ .

غيرهما مما لم يعرض اليعقوبي له .

فهذا شأن القرطاس في القرن الثالث ، أما في القرن الرابع فلا ندري ـ على التحقيق ـ الحالة التي صار اليها . وان كان الذي يغلب على الظن انه انتهى تماماً في المشرق . ولعلنا نستطيع أن نرى هذا المعنى في هذه العبارة من كلام الثعالبي ، في حديثه عن سمرقند : « ومن خصائص سمرقند الكواغيد التي عطلت قراطيس مصر ، والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها ، لانها أحسن وانعم وأرفق وأوفق » [1] والثعالبي من أهل القرن الرابع .

واذا كانت كلمة « القرطاس » ظلت ماثلة في هذا القرن في بعض الآثار الأدبية ، كما في هذا البيت من قصيدة أبي بكر محمد بن يحيى الصولي التي يمدح بها أبا القاسم الوزير :

ينظم درآ في قراطيسه افدى أبا العباس من ناظم [2]

فقد يكون ذلك في قبيل التوسع في الاستعمال اللغوي ، على النحو الذي جعل هذه الكلمة من اكثر الكلمات شيوعاً على مدى الأيام ، إلى وقتنا هذا .

ولعل مما يدل على هذا المصير الذي صار اليه القرطاس في المشرق ما انتهى اليه أمره في مصر ، إذ كان من الطبيعي أن تكون آخر الاقاليم التي يمكن أن يعيش فيها ، ففي الوقت الذي انتهت فيه منافسة الكاغد له في المشرق باخلائه الميدان له ، كان القرطاس ما يزال محتفظاً بوجوده في مصر . وذلك هو تأويل كلمة الثعالبي : « وقراطيس مصر للمغرب ككواغيد سمرقند للمشرق » [3] ، بمعنى أن القرطاس كان في مصر لعهده بمنزلة الكاغد في المشرق . ولكن هذا القرن الرابع إنما كان يشهد الأيام الأخيرة للقرطاس في مصر ، أو على الأقل كان يشهد الحالة التي تؤذن بانتهاء عهده فيها ، كما شهد القرن الثالث ما يؤذن

(١) لطائف المعارف ص ١٢٦ ، ط ليدن .

(٢) أدب الكتاب ص ٤٧ .

(٣) لطائف المعارف ، ص ٩٧ .

بانتهاء عهده في العراق . يقول ـ كراباتشك ـ فيما ينقل عنه آدم متس ـ : « يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح ان صناعة تجهيز ورق البردي بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالاجمال حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، فنجد أن الورق البردي المؤرخ ينتهي في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م انتهاء تاماً ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م » [١] .

واذن ففي الوقت الذي أخذت فيه القراطيس العراقية تنحسر عن العراق ، لم يكتف الكاغد بأن يحل محله هناك ، بل كان يملك من أسباب الانتشار والذيوع ما مكن له من أن يمتد إلى مصر نفسها ، فيغزو القراطيس في موطنها . ثم ما زال بها يطاردها ويسد المسالك عليها ، حتى قضت نحبها ، كما نرى فيما ذكره كراباتشك .

وفي هذا الخبر الذي يحكيه ياقوت في سياق ترجمته لابن حنزابه ، جعفر بن الفرات ، وزير الاخشيديين في مصر ، ما يدلنا دلالة واضحة على ما صار اليه أمر القراطيس في مصر ازاء منافسة الكاغد لها ، إذ يقول : « كان يعمل للوزير أبي الفضل الكاغد بسمرقند ، ويحمل اليه في مصر في كل سنة . وكان في خزائنه عدة من الوراقين » [٢] .

وقد لا يكون في هذا الخبر ما يدل دلالة قاطعة على انتهاء عهد القراطيس في مصر ، في ذلك الوقت الذي وزر فيه ابن حنزابة للاخشيديين ، وقد وزر لهم منذ أنوجور بن الأخشيد (٣٣٤ ـ ٣٤٩) إلى أن انتهت دولتهم عام ٣٥٧ . ولكنه يدل ـ على كل حال ـ على انه قد أتيح للقرطاس المصري ، في مصر نفسها ، من الكاغد الخراساني منافس قوي الشكيمة لم يملك بازائه نفسه ، ولم يستطع أن يصمد له وهو في موطنه ، فكان الكاغد يستورد إلى مصر

---

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة أبو ريدة ، ٢ : ٢٦٨ — ٢٦٩ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) معجم الأدباء ٧ : ١٢٦ ، ط دار المأمون ، القاهرة .

من أقصى الأرض . وإن لم يكن في هذا ما يدل على النهاية ، ففيه ما يؤذن بهذه النهاية .

على أنا — مع هذا — أقرب إلى القول بأن ذلك كان آخر العهد بالقراطيس ، إذ كنا لا نجد بين أيدينا ما يدلنا على استمرار بقائها .

وإذ فرغنا من أمر القرطاس نعود إلى حديث الرق والمكان الذي قسم له ، وما أتيح له من الكاغد ومنافسته . وكنا وقفنا من هذا الحديث عند كلام ابن خلدون ، ورأينا انه جعل الرق وحده أداة الكاتب والعالم ، والمنفرد بوجوه النشاط الإداري والعقلي ، فيه تكتب الرسائل والصكوك ، وفيه تدون الكتب والتصانيف ، وعليه وحده تعتمد حلقات الدرس ودواوين الدولة جميعاً ، وأن الأمر بقي على ذلك إلى أيام الرشيد ، حين أشار الفضل بن يحيى البرمكي — فيما يقول — بصناعة الكاغد في العراق . واستطاعت الكتابة بذلك أن تتحرر من هذا الرق . وقد رأينا مبلغ ما في هذا التعميم وإطلاق القول من مجانبة للدقة وتجنّ على الحقيقة ، إذ أغفل القراطيس ومكانها إلى جانب الرقوق مكان ظاهر . أما ما عدا هذا فقد أدى ابن خلدون ـ فيما نرى ـ صورة واضحة صحيحة للدور الذي كانت تقوم به الرقوق إذ ذاك ، في هذه الناحية من الحضارة الاسلامية .

ولقد كان مما ينبغي للرقوق ويستتبع ذلك الدور الكبير الذي تؤديه ، وهذا النشاط الواسع المنوط بها ، أن تنشأ لها في العراق المصانع ، تهيأ فيها الجلود بالدباغة والترقيق وما إلى ذلك ، إذ كان العراق مركز ذلك النشاط ، ولم يعد يكفي في الوفاء بالحاجات التي تؤديها الرقوق أن يعتمد على استيرادها من بلاد الفرس ، كما كان الأمر من قبل . فكان إذن من الطبيعي الذي تفرضه هذه الحالة أن تكون للرقوق مصانعها في العراق . وهذا ما يجب افتراضه إذا لم نجد النص عليه أو الاشارة اليه .

على أن ابن النديم يقول في بعض كلامه : « وكانت الكتب في جلود دباغ النورة ،

وهي شديدة الجفاف ، ثم كانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر ، وفيها لين » [1] .

وإذن فقد كانت الرقوق تصنع في الكوفة ، وقد أتيح لها أن تجود في صناعتها . وفي خبر أورده الجاحظ ما يدل على أن الرقوق الكوفية كانت رقوقاً مرموقة معروفة بالجودة ، وذلك إذ يقول في سياق كلامه عن الكتب والعناية بها والحرص عليها : « وقيل لابن داحه ـ وأخرج كتاب أبي الشمقمق ، وإذا هو في جلود كوفية ، ودفتين طائفيتين . بخط عجيب ـ فقيل له : لقد أضيع من تجود لشعر أبي الشمقمق ... الخ الخبر » [2] فنحن من هذا الخبر إزاء نسخة من ديوان أبي الشمقمق ، وقد احتفل صاحبها لها وتأنق فيها ، فكان من تأنقه أن كتبها في جلود كوفية .

وإلى جانب الكوفة كانت هنالك واسط والبصرة . وكما كانت الرقوق الكوفية أجود أنواع الرقوق كانت الرقوق البصرية أردأها ، فأما الواسطية فهي متوسطة بين هذه وتلك ، كما يستخلص ذلك من كلام الجاحظ في الموازنة بين الكاغد والرق ، إذ يذكر من مساوىء الرق أنه « أحمل للغش ، يغش الكوفي بالواسطي ، والواسطي بالبصري » [3] .

تلك هي مصانع الرقوق التي أتاحت لها أن تؤدي تلك الحاجات الكثيرة المختلفة التي اضطلعت بها ، فكان لها تلك المكانة الكبيرة التي رأيناها .

ولكن الرق لم يلبث أن منى بما رأينا القرطاس منى به ، إذ أتيح له من الكاغد منافس قوي شديد الخطر ، وان أثبت في هذه المنافسة أنه أشد من القرطاس أيدا وأطول ذماء . فلم يكد هذا النوع الجديد من الورق يعرف ويصطنع في العراق ، حتى أخذ يتحيف المناطق التي يتمتع الرق بالنفوذ فيها . وكان أول ذلك في الكتابات التي تنظم معاملات الناس

---

(١) الفهرست ، ص ٣٢ .

(٢) الحيوان ، ١ : ٦١ .

(٣) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٢٨ .

وتوثقها ويقع التقاضي بها ، إذ أصدر الرشيد أمراً « ألا يكتب الناس إلا في الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة ، فتقبل التزوير ، بخلاف الورق ، فانه متى محى منه فسد ، وان كشط ظهر كشطه »[1]. كما هو نص عبارة القلقشندي . فظاهر من سياق هذا الخبر وعلة هذا الأمر أن تحريم الكتابة في غير الكاغد إنما كان مقصوداً به ـ كما قلنا ـ الصكوك والعقود والعهود والمواثيق، وما إلى ذلك مما يتقيد الناس به ، وترتبط معاملاتهم بنصه . وبذلك كان الحرص على صحته وثباته والثقة به . فذلك نوع من التنظيم الذي تلجأ اليه الدولة وتأخذ به الناس ، تأميناً لها ، وتوسلاً للأخذ بالثقة في معاملاتهم . ولعل ذلك التحريم إنما كان عن سوابق تزوير كان الرق مما جعل سبيلها ميسوراً .

وإذا عرفنا أن صلة الرق بالديوان كانت آخذة في الوهن والاضمحلال ، منذ استطاع هذا الديوان أن يوفر لنفسه القراطيس ، حتى يستطيع أن يكتفي ـ قدر الطاقة ـ بها، وأنه كان مهتماً بأمر الكاغد وتوفيره لأنه كان أسهل من القراطيس منالاً وأقرب مورداً وأيسر صنعاً ؛ إذا عرفنا هذا وأضفنا اليه ما ذكره القلقشندي من الأمر الذي أصدره الرشيد محرماً استعمال الرق في العقود والصكوك وما اليها ، كان لنا ان نعتبر الرق شيئاً منتهياً ، فيما يتعلق بتلك الكتابات التوثيقية ، إذا لم يكن في الأمر إلا ما ذكرنا من أمر الخليفة وحرص السلطان على إحاطة معاملات الناس بالثقة ، وتجنيبها أسباب الغش ووسائل الخداع والتزوير.

ولكن الأمر لم يكن في حقيقته مقصوراً على هذا . وشؤون الحياة لا تمضي على مثل هذا النحو ، فهي إنما هي تخضع لطائفة كبيرة من الاعتبارات ، فالى جانب هذا الاعتبار كان هنالك ـ ولا ريب ـ اعتبارات أخرى لها أثرها الكبير في مثل ما نحن فيه ، ومن أولها العادة التي تسيطر على الناس وتسوسهم وتوجه سلوكهم وتكيف تقديرهم للأمور إلى حد بعيد . وتعود الناس استعمال الرقوق في تلك الأغراض لا يمكن أن يمحقه أمر يصدره

(١) صبح الأعشى ٢ : ٤٧٥ — ٤٧٦ .

الخليفة ، أو بيان يشرح به النتائج المترتبة على هذا الاستعمال ، مهما يكن هذا البيان مقنعاً في نفسه ، بما يدلي به من حجة ، فهذا الاقناع وحده لايكفي في إبطال عادة متغلغلة ، وان يكن مع هذا له أثره في الاضعاف من سلطان تلك العادة والتهوين من شأنها .

ومن ذلك ما نرى من أن الرق بقى زمناً غير قصير وجل اعتماد الناس عليه في تلك الأغراض التي حرم الرشيد استعماله فيها ، إذ نراه بعد ذلك التحريم بنحو أربعين سنة ولايكاد الناس يستعملون غيره في ذلك النحو من الكتابة ، كما يتبين ذلك فيما يتطرق الجاحظ إلى ذكره في رسالة الجد والهزل ، وهي إحدى رسائله التي كان يكتبها لمحمد بن عبد الملك الزيات ، إذ يقول : « وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكاك والعهود ، وفي الشروط وصور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ، ومنها تكون خرائط البرد ... الخ »[1] . وفي هذا النص نرى الجاحظ أفادنا وجوهاً أخرى لاستعمال الرق ، كصور العقارات ونموذجات النقوش ، لم يكن الكاغد ينافسه فيها .

ويذكر ابن النديم أن الناس أقاموا « ببغداد سنين لايكتبون إلا في الطروس ، لأن الدواوين نهبت في أيام محمد بن زبيدة ، وكانت في جلود ، فكانت تمحى ويكتب فيها »[2] .

ونستطيع أن نضيف إلى الوجوه التي ذكرها الجاحظ لاستعمال الرق وجهاً آخر ، وهو استخدام المحررين ـ أو من ندعوهم بالخطاطين ـ له في تجويداتهم . وقد بقى للرق هذا المجال إلى القرن السادس ، على النحو الذي يدلنا عليه ياقوت في حديثه عن المبارك الكرخي ، من أهل هذا القرن ، (توفى سنة ٥٨٥) . وقد وصفه بأنه كان « أوحد زمانه في حسن الخط على طريقة علي بن هلال بن البواب » ، ثم يقول : « وكان ضنيناً بخطه جداً ، فلذلك قل وجوده . كان إذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعى طستاً ويغسله » . فما يكون

---

(١) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٧٨ ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ .

(٢) الفهرست ، ص ٥٢ .

ذلك إلا وتجويداته في الرقوق .

وهكذا نرى كيف استطاع الرق ، رغم منافسة الكاغد القوية ، ومظاهرة السلطان له ، أن يصمد في المعركة ، ويظل مستبقياً هذا الميدان أمداً غير قصير ، وإن شاركه الكاغد بطبيعة الحال . ولا ريب ان قوة العادة وإيثار القديم كانا من أقوى أسلحته في هذه المعركة .

فاذا انتقلنا إلى الكتابات العلمية ، وتركنا الدواوين الى بيئات العلماء والمؤلفين وأسواق الوراقين ، وجدنا للرقوق مكانها الظاهر المعترف به ، المتفق على تفوقه ، وان أراد الكاغد بطبيعة الحال أن يقتحمه عليها . وقد ظل الأمر في هذه البيئات صراعاً بين الرق والكاغد — كما كان صراعاً بينه وبين القرطاس — زمناً غير قصير ، استطاع الأول أن يصمد فيه أيضاً . وقد بقي يكابد هذا الصراع في استبسال وإصرار ، إلى أن قضى عليه أخيراً كما قضى على القرطاس .

ومن شواهد المنزلة التي ظلت للرق في هذا الميدان ما رأينا منذ قليل من كتابة ابن داحة ديوان أبي الشمقمق على جلود كوفية ، وان هذا كان يعتبر صورة من صور التجود والتأنق . وابن داحة هذا من أهل النصف الثاني من القرن الثاني ، فقد كان — كما تشير الى ذلك بعض الأخبار — معاصراً لأبي عبيدة ومن أصحاب مجلسه [1] . ومن ذلك أيضاً ما يذكره الجاحظ عن اسحاق بن سليمان — وكان أمير البصرة في عهد الرشيد — انه دخل عليه بعد عزله من الإمارة . « وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر »[2] . فها هوذا يعد الرقوق هنا بين عدة العالم وأدوات دار كتبه ، كما يعد القماطر والدفاتر والمساطر والمحابر . وبهذا الذي ذكره الجاحظ نرى أن

(١) الحيوان ٣ : ٤٠٢ .

(٢) الحيوان ١ : ٦١ .

بيت كتب إسحق بن سليمان كان يجمع بين الرق والورق . والورق هنا يتمثل في الدفاتر ، على ما يدل عليه ذكر الجاحظ لها في مكان آخر ، إذ يجعلها في مقابلة المصاحف المكونة من الرقوق [1] .

واستمر للرق مكانه الأثير عند العلماء، حتى ليرونه وحده الجدير بكتابة حديث الرسول، صلى الله عليه وسلم ، وان كتابته في غيره تجاوز لحدود الأدب العلمي ازاءه ، كما ترى في الخبر الذي رواه الخطيب البغدادي عن أحمد بن بديل الكوفي ، حين بعث اليه المعتز ليأخذ الحديث عنه ، حتى إذا دخل عليه واستقر في مجلسه ، وتهيأ لاملاء الحديث ، « أخذ الكاتب القرطاس والدواة » . فقال له منكراً : « أتكتب حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، في قرطاس بمداد ؟ » ، فاذا سأله الكاتب : « فيما يكتب إذن ؟ » ، قال : « في رق بحبر » . فجاؤا بالرق والحبر ، وأخذ في الاملاء [2] .

وبهذه المكانة التي تسنمها الرق في أوساط العلماء ، وهذه الهالة التي أحاطت به ، مضى في طريقه خلال القرون ، فنحن ما نزال نقع على الحبر بعد الحبر دالا على احتفاظه بمكانه ، كهذا الحبر الذي يحكيه ياقوت في سياق حديثه عن أبي الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي، المتوفى سنة عشرين وأربعمائة ، وسرده أسماء كتبه ، وقد ذكر من بينها كتابه الذي وضعه شرحاً على كتاب سيبويه ، إذ يقول عنه : « إلا أنه غسله . وذلك إن أحد بني رضوان التاجر نازعه في مسألة ، فقام مغضباً ، وأخذ شرح سيبويه وجعله في إجانه ، وصب عليه

---

(١) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) تاريخ بغداد ، : ٥٨ . وفي هذا النص يبدو أن المداد شيء والحبر شيء آخر ، والمعروف عنها بمعنى واحد ، ولكن السياق هنا يدل على ان المداد كان يطلق على نوع من الحبر يناسب القرطاس ، والحبر على ما يناسب الكاغد . وانظر ما يذكره القلقشندي في جعله الحبر صنفين : صنف يناسب الكاغد ، وصنف يناسب الرق ، ويسميه الحبر الرأس (صبح الأعشى ٢ ~~صحيح~~

الماء وغسله ، وجعل يلطم به الحيطان ويقول : لا أجعل أولاد البقالين نحاة »[1] .

ونبلغ القرن السادس فنجد في أواخره ياقوتاً يحكي أنه لقي في آمد ، سنة ٥٩٣ ، علي بن الحسن بن عنبر المعروف بالشميم الحلي ، وكان شديد المغالاة بنفسه والغض من غيره ، « لا يقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً » ، إلا أنه قال عن الحريري ومقاماته إنه حاول معارضته ، فأنشأ مقامات كمقاماته ، ثلاث مرات ، ولكنه ما إن يتأملها حتى يسترذلها ، فيعمد الى البركة فيغسلها[2] .

وهكذا نرى ان الرق بقي أداة من أدوات العلماء والأدباء حتى نهاية القرن السادس ، وإن كنا لا نعرف تماماً متى قضى عليه القضاء الأخير ، إلا اننا نحسب على كل حال أن العهد لم يطل به كثيراً بعد ذلك ، فقد كانت منافسة الكاغد له منافسة قوية دائبة منذ أول امره ، لم تهن ولم تفتر ، ولا سيما بعد ان كثرت مصانعه ، وتعددت مواطن إنتاجه ، على الوجه الذي نرجو أن نبينه بعد .

ولدينا من هذه المنافسة التي ثارت بين الرق والكاغد صورة في غاية الطرافة ووضوح الملامح ، أطرفنا بها الجاحظ ، بأسلوبه الرائع ، وطريقته الساخرة العابثة ، وهي تقع في رسالة الجد والهزل التي اشرنا اليها منذ قليل .

وقد زعم الجاحظ في رسالته هذه التي بلغ بها شأواً بعيداً في التصوير العابث والتحليل الساخر ان ابن الزيات — وكان ، فيما يزعم في هذه الرسالة ، جعل يبالغ في النكاية به ، ويصطنع الوسائل الدقيقة الخفية للكيد له — كان مما انتحله من مذاهب النكاية ، وان ساقه مساق النصيحة الصادقة والمشورة الخالصة ، ان زيّن له النسخ في الجلود بدلاً من الكاغد ، ومن ذلك بدأ ابو عثمان حديثه ، وعليه بنى هذا الفصل الرائع الذي يعنينا منه في

---

(١) معجم الأدباء ١٤ : ٧٩ .

(٢) معجم الأدباء ، ١٦ : ٢٦٨ — ٢٦٩ .

هذا البحث ما عرض به كلا من وجهة نظر اصحاب الكاغد واصحاب الرق ، وما تحدث به عن العلة التي يعتل بها هؤلاء واولئك ، في إيثار ما يؤثرون منها ، والغض مما يعرضون عنه . قال :

« جعلت فداك ! ما هـذا الاستقصاء ، وما هذا البلاء ، وما هذا التتبع لغوامض المسألة ، والتعرض لدقائق المكر ، وما هذا التغلغل في كل شيء يخمل ذكرى ، وما هذا الترقي الى كل ما يحط من قدري ، وما عليك ان تكون كتبي كلها من الورق الصيني ، ومن الكاغد الخراساني ؟ قل لي : لم زينت النسخ في الجلود ، ولم حثثتني على الأدم ؟ وانت تعلم ان الجلود جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، انا اصابها الماء بطلت ، وإن كان يوم لثق استرخت ولو لم يكن فيها إلا انها تبغض إلى اربابها نزول الغيث ، وتكره إلى مالكيها الحيا ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها . وقد علمت ان الوراق لايخط في تلك الأيام سطراً ، ولا يقطع فيها جلداً . وان نديت — فضلاً عن ان تمطر وفضلاً عن ان تغرق — استرسلت وامتدت ، ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقبض شديد وتشنج قبيح . وهي انتن ريحاً ، واكثر ثمناً ، واحمل للغش : يغش الكوفي بالواسطي والواسطي بالبصري . وتعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها . وهي اكثر عقداً وعجراً ، واكثر خباطاً واسقاطاً ، والصفرة اليها اسرع ، وسرعة انسحاق الخط فيها اعم . ولو اراد صاحب علم ان يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير ، ولو اراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها ، فإنها أحمل للحك والتغيير ، وأبقى على تعاور العارية ، وعلى تقليب الأيدي ، ولرديدها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجديد . وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق ، وإن كان فيها كل حديث طريف ، ولطيف مليح ، وعلم نفيس ؛ ولو عرضت عليهم عددها في عدد الورق جلوداً ، ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ، لكانت أثمن ، ولكانوا اليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكاك والعهود ، وفي الشروط وصور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوش ، ومنها تكون خرائط البرد ، وهن أصلح للجرب ولعفاص الجرة وسداد القارورة . وزعمت أن الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سبب المضرة والاستبدال بالكاغد ، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في الحمل إلى المصاحف التي تثقل الأيدي ، وتحطم الصدور ، وتقوس الظهور ، وتعمي الأبصار . وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن، دون كل مجلد ، وألا يرووا جمع شيء من أبواب العلم بين الدفتين ، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم »[1] .

وقد آثرنا إيراد هذا الفصل من كلام الجاحظ على طوله ، لأنه — بالرغم من اللهجة الساخرة التي اصطبغ بها — يقدم لنا صورة حية قوية نابضة من هذا الصراع الناشب بين الرق والكاغد ، كما نستطيع أن نتعرف فيه — في صورة واضحة — سيئات الرقوق وحسناتها ، كما تتردد على ألسنة أنصارها وخصومها ؛ وأن نرى كيف كانت الرقوق تجاهد وتقاوم أنواعاً من المقاومة لتصمد لمنافسة الكاغد ، وكيف كانت في مقاومتها هذه تعتمد على كثير من التعلات وصغائر الاعتبارات ، تزجى بها بضاعتها ، وتتوسل بها إلى التماس إيثار الناس إياها . وهي — كما نرى — تعلات تدل في مجموعها على الافلاس ، كقول أصحاب الرقوق إزاء ما كان الكاغد يمتاز به من رخص السعر : انها في مقابل هذا تمتاز بأن وجوه الانتفاع بها كثيرة ، « فإنها أحمل للحك والتغيير ، وأبقى على تعاور العارية ، وعلى تقليب الأيدي ، ولرديدها ثمن ، ولطرسها مرجوع » ، وانها تستطيع أن تخدع الناس عما فيها من حديث غث وشعر بارد ، إلى غير ذلك من الحجج التي يراد بها إثارة الرغبة في الكسب

---

(١) مجموع رسائل الجاحظ ، ص ٧٢ — ٧٩ .

المادي ، وصرف الأنظار عن مزايا الكاغد المتصلة بوظيفته وحقيقته .

ولكن ذلك كله لم يغن شيئاً عن المصير المحتوم الذي كان مقدوراً للرق أن ينتهي اليه ، وإن كثرت مقاومته وطال ذماؤه واشتد بالحياة تشبثه . نزولاً على سنة الطبيعة وقوانين التطور .

وبانتهاء استعمال الرق في هذا الأفق انفرد الكاغد بفنون الكتابة جميعاً في الشرق الاسلامي كله .

أما الغرب ، ونعني به هنا ما كان إلى غربي مصر ، فالأمر فيه مختلف اختلافاً يقتضي وقفة قصيرة تبينه وتدل على بعض وجوهه .

وقد أشرنا من قبل في تعليقنا على ما قاله ابن خلدون عن الرق واستئثاره بوجوه النشاط المختلفة حتى ظهور الكاغد ، إلى انه في إغفاله أمر القرطاس ربما كان متأثراً بتاريخ الوراقة في المغرب ، حيث انفرد الرق بأداء الحاجات الديوانية والعلمية فترة غير قصيرة إلى أن أتيح للكاغد أن يأخذ مكانه إلى جانبه .

وقد كان الظن بالدولة المركزية، التي كانت ـ فيما يبدو ـ حريصة على أن تأخذ دواوينها في الأقاليم المختلفة بنظام واحد تقريباً ، أن توفر لدواوين المغرب القرطاس كما توفره لدواوين المشرق . ولكن القراطيس لم تكن ـ فيما يظهر ـ من الوفرة بحيث تكفي حاجة دواوين الدولة جميعاً في المشرق والمغرب . كما يبدو — إلى جانب ذلك — أن دواوين المغرب لم تبلغ في عهدها الأول المبلغ الذي تحتاج معه إلى مثل القرطاس ، بحيث لا تستطيع أن تمضي أمورها بدونه ، كما كان الأمر في المشرق .

فكان الأمر إذن ، في عهد الولاة ، للرق وحده ، حتى جاءت دولة الأغالبة . وتحقق بها لأفريقية استقلالها الذاتي ، وأرادت أن تجعل منها دولة كبرى ، وأن تسبغ عليها من الوان الحضارة المختلفة ، مادية وأدبية ، ما يجعلها جديرة بالمكان الذي تطمح اليه . واستطاعت أن

تمضي في ذلك إلى مدى غير قريب ، فكان من الطبيعي أن تنظر في أمر القرطاس الذي يعد مظهراً من مظاهر الحضارة في المشرق . وإذ كانت دواوين المشرق وأسواقه تكاد تستغرق كل انتاجه في مصر ، دون أن يفي بحاجاتها ، حتى فكر المعتصم في أن يصنعه في العراق ، كما رأينا ، فليحاول الأغالبة ما حاوله المعتصم ، وليجعلوا من القرطاس صناعة أفريقية .

وهكذا نشأت في أفريقية صناعة القرطاس من نبات ينبت في صقلية أشبه ببردي مصر ، يذكره ابن حوقل ، كما يشير فيما يذكره عنه إلى هذه الصناعة ، وذلك إذ يقول في حديثه عن صقلية : « وفي خلال أراضيها بقـــاع قد غلب عليها البربير ، وهو البردي المعمول منه الطوامير . ولا يعلم لما بمصر من هذا البربير نظير على وجه الأرض ، الا ما بصقلية منه ، وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب . وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس . ولن يزيد على قدر كفايته » [1] .

وبهذا نرى أن صناعة القرطاس في المغرب نشأت نشـأة بسيطة ، في حدود إمكانياتها الصغيرة ، كما ظل القرطاس فيه محدوداً بحدود الاستعمال الخاص للسلطان ، لايتجاوزه ، كأنه مظهر من مظاهر امتيازه ، ووجه من وجوه الترف المقصور عليه . « ولهذا السبب لم يكن له أثر كبير في المظهر العلمي الافريقي ، لدرجة اننا لم نعثر على قطعة صغيرة منه ، فيما وصل الينا من تراث العصـــر الذي نبحث عنه » ، كما يقول الاســـتاذ البحاثة حسن حسني عبد الوهاب » [2] .

وهكذا انتفت منافسة القرطاس للرق ، على هذه الصورة .

أما الـكاغد — وقد كانت صناعته في أفريقية مقارنة لصناعة القرطاس ، فيما يبدو — فقد كان أوفر من القرطاس حظاً ، إذ كـان أيســر سبيلاً . ذلك ان مادته التي كـان يتخذ

---

(١) صورة الأرض ، ص ١١٧ ط بيروت .

(٢) في بحثه القيم : « البردي والرق والـكاغد في افريقية التونسية » ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، ص ٤١ .

منها كانت من النباتات التي تنبت في أفريقية ، وهي الكتان الذي كانوا يتخذون منه الثياب . يقول الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب : « وبين أيدينا نماذج من الورق الافريقي المصنوع من الكتان ، وكان مما يزرع في أفريقية ، وكذا نماذج من الورق المتخذ من خرق الكتان البالية . وأقدم ما وقفت عليه منه كراس منسوخ بالقيروان ، سنة ٢٧١ ». كما يستظهر أن أول ظهوره في أفريقية كان في أواسط القرن الثالث ، في عهد الأغالبة [١] .

فقد أتيح إذن لصناعة الكاغد في أفريقية ما لم يتح لصناعة القرطاس فيها ، فمضت في طريقها قدماً ، « حتى بلغت في القيروان وفي مدينة تونس والمهدية شأواً بعيداً من الرفعة والاتقان » . كما يقرر ذلك أيضاً الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب .

ولكن مع هذا الشأو البعيد الذي بلغته صناعة الكاغد . والذيوع الذي ظفر هو به، لم يستطع أن يزحزح الرق كثيراً عن مكانه في المغرب ، فبقي صاحب المكان الأول فيه ، كما لاحظ ذلك البشاري فيما ذكره عنه في أواخر القرن الرابع ، إذ يقول : « وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق » [٢] .

وهذه المنزلة التي ظفر بها الرق في أفريقية أتاحت له من التوفر على العناية بصنعه ، والافتنان في تهذيبه ، والتأنق في تزيينه وتجميله ، ما لم يظفر به في مكان آخر ، حتى أصبح الرق المغربي فريداً في بابه ، كما تشهد بذلك النماذج الرائعة الماثلة في مكتبة جامع عقبة بالقيروان ، ويقول الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب : إن أهل أفريقية بلغوا « في صناعة تجهيز الرق ، وصقله ، وتمحيره ، وصبغه أحياناً بألوان مختلفة ، ما بين أخضر ولازوردي وأحمر قانٍ ، الغاية القصوى في الاتقان والنعومة ، حتى صار الرق من السلع التي يتجهز فيها ويرتفق بها الى جميع آفاق المغرب والأندلس والعدوة الافرنجية » ، كما يشير إلى الذخيرة

(١) المرجع نفسه .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٩ ، ط ليدن ،

الكبرى التي احتفظت بها خزانة جامع عقبة فيقول : « ومن يطلع على قناطير الرقوق المحفوظة في المكتبة العتيقة بجامع عقبة في القيروان يرى ما يدهش الأبصار من دقة الصنعة، وجودة تحضيره واتقانه » [1] .

وإذا كان الرق استطاع أن يظفر في المغرب بهذه المنزلة ، وان يحتفظ بمكانه حتى القرن الثامن ، في هذا الأفق من آفاق العالم الاسلامي ، بعد أن انتهى أمره تماماً في المشرق ، منذ قرنين من الزمن ، فإنه لم يكن من الطبيعي أن يغالب سنن الكون ، وأن يمضي في الصمود أمام الكاغد . وهكذا لم يلبث أن واجه المصير الذي واجهه من قبل في المشرق .

وبذلك انفرد الكاغد بفنون الكتابة جميعها في العالم الاسلامي كله : شرقه وغربه .

محمد طه الحاجري

---

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، ص ٤٣